منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5414) السنة العشرون - الاربعاء (19) نيسان 2023

الطبيب صالح .. ذاكرة السودان

14 عاما على الرحيل

وسطية الطيب صالح..

جابر عصفور

طوال معرفتي الطويلة بالطيب صالح كنت أتأكد، يوما بعد يوم، أنه رجل وسطي، ينفر من الحدية في الفكر أو الإبداع وكنت، ولا أزال، أري أن قصته القصيرة دومة ود حامد هي أقرب أعماله الأدبية في تمثيل ذوقه وميوله وطبيعة شخصيته، فالقصة تدور حول الصراع بين التحديث والتقاليد المتوارثة، فأهل القرية التي يبدو أنها تشبه القرية التي ولد فيها الطيب صالح نفسه، كانوا قد توارثوا التبرك بشجرة الدوم التي تظلل قبر ولد حامد الذي تحول إلي ما يشبه المقام الذي يتبارك به العامة في مصر، وهي تتحول إلي نوع من الرمز في السرد، وحين يقترب التحديث من القرية، وتبدو فكرة إقامة مصنع، في موضع شجرة الدوم والمقام تحدث أحداث غامضة، تنتهي كلها إلي تعطيل البناء، كأن وجود أحد النقيضين نفي للآخر ويأتي الحل الوسط بنوع من التوفيق الذي يجاور بين النقيضين،دون أن ينحاز الراوي إلي نظرة حدية تميل إلي استئصال أحد الطرفين وهو تكييف يدفع القارئ إلي تذكر رواية قنديل أم هاشم رائعة المرحوم يحيي حقي الذي كدنا ننساه والرواية القصيرة التي صدرت من صاحبها كالطلقة تدور حول الصراع نفسه بين الحداثة والتحديث من ناحية والتقاليد والأعراف الاجتماعية التي ترسخ فتغدو في وزن العقائد الدينية التي يصعب علي صاحبها التخلي عنها من ناحية مقابلة.

ويتجسد ذلك في ابن الأسرة التي تقطن حي السيدة زينب التي تعيش في بركة المقام الزينبي، محمية بنفحاته الروحية، معتادة علاج أمراضها بزيت القنديل المبروك، ويذهب البطل إلي ألمانيا محملا والده التاجر مصاعب تدبير نفقات تعليمه في الخارج، ولكن الأب يتحمل المصاعب، حالما بعودة الابن الذي لابد أن يكون فخرا للأسرة، ولكي يكمل فرحة أمه وأبيه بزواجه من قريبته التي قررا رعايتها كابنتهما، ونذراها زوجة للابن بعد عودته.

ويعود الابن ليكتشف أن قريبته الموعود بها مريضة العينين، وأنها تعالج عينيها بقطرات تقطرها أمه من زيت قنديل أم هاشم التي تؤمن والمريضة أنه زيت مبارك، فيه الشفاء الأكيد ويثور الطبيب العائد من ألمانيا، مزودا بأحدث معارف طب العيون، ويرفض العلاج بزيت القنديل، بل يذهب في ثورة سخطه علي التقاليد البالية إلي حد تحطيم زيت القنديل المبارك ويبدأ علاجه المريضة بكل وسائل طب العيون الحديثة التي نجحت معه في عشرات الحالات، ولكنها لم تفلح مع قريبته وزوجته المستقبلية التي ازداد مرضها تفاقما بعد أن حطم القارورة التي تحتوي قطرات الزيت المبارك، والقنديل الذي يمتلئ به وينتهي الأمر إلي أزمة نفسية روحية لا يخرجه منها سوي عودته إلي المقام، والحصول علي قارورة جديدة من زيت القنديل التي قرر أن يجاور بين قطراتها ووسائل الطب الحديث وينجح في محاولته هذه المرة، فالمريضة اطمأنت إلي استخدام الزيت المبارك الذي توارثت الاعتقاد فيه، والدكتور إسماعيل يستغل هذا الاعتقاد ويجاور بينه والوسائل الحديثة، جامعا بين التقاليد والحداثة، موفقا بين الإيمان المتوارث والعلم الحديث المكتسب، مدركا أن هذا النوع من المجاورة أو التوفيق بين الأضداد هو الحل في المجتمعات المتخلفة التي نعيش فيها.

أذكر أنني حين قرأت قنديل أم هاشم في شبابي الباكر رفضت ما رأيته فيها وسطية، وكنت في هذه الأيام حديا أتهم كل محاولة للتوفيق بالتلفيق وزاد من ثورتي علي قنديل أم هاشم ما تحول إليه الدكتور إسماعيل نفسه الذي أصبح هليلهليا يتراكم كرشه، ويتزاحم عليه المرضي الذين صاروا يرون فيه راجل بركة وكنت أقول لنفسي كأنك يا أبا زيد ما غزوت، قاصدا إلي أن الرجل تخلي عن العلم من أجل الخرافة ولكن عندما اشتعل رأسي شيبا، وجدت نفسي أقرب إلي فهم منظور الرواية، وطيب مقصدها في المصالحة بين العلم والمعتقدات الشعبية، بدل التضاد العدائي بينهما ولذلك سهل علي فهم منطق الطيب صالح الذي كان يري ضرورة المصالحة بين النقائض المتعادية، ما ظل تقدم الأمة محتاجا إلي هذا النوع من المصالحة ولذلك كنت أداعبه، أحيانا، بتشبيهي له بالأب ياناروس الذي سعي جاهدا إلي أن يصالح بين الإخوة الأعداء الذين يجمعهم طريق الثورة في اليونان المتمردة علي استعمارها التركي.

فكان يري نوعا من القرابة بين ماركس ولينين ورموز الدين المسيحي، وكنت أداعب الطيب صالح بما كنت أداعب به صديقي اللدود حسن حنفي من أن هذا أشبه بنوع من التلفيق الفكري وكان الطيب أكثر هدوءا وصبرا علي انتقاداتي، ربما لأنه كان مدركا أنها نوع من التفكير بصوت مرتفع، والتعبير عن أسئلة مؤرقة لا تزال تسكنني ولذلك كان يبتسم، دائما، ويجيب علي طريقة الحكماء الرزينة، وبصوت لا يعرف الغضب بما يهدئ من اعتراضاتي، متسعا بأفق الوسطية في إمكان وجودها وفائدتها.

وشيئا فشيئا أدركت أن الوسطية سمة أساسية في شخصيته وأدبه، ودليل ذلك أنه قاد مصطفي سعيد الشخصية الحدية في موسم الهجرة إلي الشمال إلي الدمار، بينما أبقي علي شخصية الراوي الذي كنا نراه نقيض مصطفي سعيد في السلوك وفي الوقت نفسه فإن السيرة الروائية التي كتبها لصديقه منسي، وهي سيرة إنسان نادر علي طريقته، فيما يؤكد العنوان الذي يؤكد الاختلاف الجذري بين الطيب والمنسي، حيث الاختلاف الحدي يظل ماثلا بين الصديقين اللذين يجد كل منهما في الآخر ما ليس فيه، فيتصلان من هذا المنظور، فالطيب لم يكن ينطوي علي روح المغامرة المندفعة إلي أقصي حد، علي النقيض من منسي، الذي ظل رجلا نادرا، لكن ليس علي طريقة الطيب صالح.

عن صحيفة الاهرام ٢٠١٩

كيف أنسى الطيّب صالح

خالص عزمي

في الخمسينات والستينات كان لي حضور في الجانب الادبي من القسم العربي من اذاعة بي بي سي (بوش هاوس) ، حيث القيت بعضا من نتاجي الذي توزع على الوان ادبية متنوعة ؛ وبطبيعة الحال ، كنت التقى في الكافيتريا او في اروقة ومكاتب الاذاعة بوجوه معروفة كان لها دورها البارز في تطوير البرامج وشد المستمعين اليها ؛ وذلك لما اتسمت به تلك الكوكبة من ثقافة عامة عالية ولغة عربية صافية ونطق سليم ، وصوت رخيم ، كالاساتذة (حسن سعيد الكرمي ؛ ومنير شما ؛ والطيب صالح ؛والفنان محمود مرسي وماجد سرحان وهدى الرشيد وجمال فارس وسامي حداد ومديحة رشيد المدفعي وايوب صالح وجميل عازر ... وغيرهم (.

كان الطيب صالح مشرفا يومها على الدراما في الاذاعة ؛ وكان كبار الممثلين المصريين يتقاطرون حوله ويرتاحون لاسلوبه في التعامل من امثال يوسف وهبي ، وعباس فارس ومحمود السباع ، ومحمود المليجي ، وامينة رزق ، ومحمد توفيق، وامينة نو الدين ، وفاخر محمد فاخروفتوح نشاطي وفردوس حسن ، وسليمان نجيب و عبد الوارث عسر وعمر الحريري ...الخ .

وكنت اجد في بعض ما يتاح لي من لقاءات بمثل هؤلاء النجوم ضالتي في معرفة نشاطاتهم في الفن والحياة .

وكنت كلما اقتربت من الطيب صالح كلما ازدت اعجابا بدماثة اخلاقه وصدقه واخلاصه .

كان الراحل الاديب و المؤرخ اللبناني ادورد عطية (وقد كان استاذا للتاريخ في كلية جوردون في الخرطوم) و مؤلف كتب (العرب ؛عربي يحكي قصته الخط الرفيع ؛ حمار من الجبل ؛ والطليعي الاسود ... الخ) اول شخص يعرفني على الطيب صالح قبل ان يشتهر كروائي بارز . كانت لقاءاتي بالطيب ؛ قليلة نسبيا ، ولكن لقاءا مهما منها كان له صداه في نفسي وحببه اليّ: كان ادور عطية قد تعاقد على انتاج روايته (الخط الرفيع) في بريطانيا سينمائيا ؛ فأراد ان يستشير بعض ذوي الخبر في الشأن ؛ فكان ان دعا كلا من صديقه الممثل المسرحي والسينمائي المعروف جون ميلز (و كان لتوه قد حصل على جائزة من مهرجان البندقية لعام ١٩٦٠ وذلك عن فلمه الذي نال تقديرا من الجمهور والنقاد الحان المجد ؛ وكذلك الشاعر خليل حاوي الذي كان يحضر للدكتوراه ، والاديب الطيب صالح ؛ وكاتب السطور لتناول طعام العشاء في فتدق (دي فير) في (هاي ستريت كنزجتن) ؛ وحينما التأم الجمع طرح علينا عطيه ما استعصي عليه فهمه من مشاكل صناعة الافلام : ، كان اول المتحدثين الفنان ميلز ؛ فأعطى فكرة موجزة عن كتابة السيناريو وصعوبة تنفيذ النص اذا ما كان غير مختص بنوعية الفيلم الذي يريد اخراجه اضافة الى قدرته على ضبط الممثلين من حيث الحفظ والاداء وكذلك بقية عناصر الانتاج كالتصوير والاضاءة وما الى ذلك .....وبابتسامة جذابة ابدى ميلز اكتفاءه بما قال ، عندها تعاقب المتحدثون بنثر ما عندهم من معلومات حول الموضوع ، اما الطيب صالح الخبير المتمكن في الاعمال الدرامية فقد شرح بالتفصيل وجهة نظره حيث ركز على جانبين اساسين هما :ضرورة اختيار المخرج الذي يمتلك خبرة في المجال الذي تدور فيه أحداث الرواية؛ اضافة وجوب عدم التقتير في ميزانية الانتاج ؛ وضرب على ذلك امثلة واقعية على فشل بعض الافلام بسبب شحة الميزانية على الرغم من متانة القصة وكفاءة الممثلين والكادر التقني . عند الساعة العاشرة مساءا ، خرجنا من الفندق وقد زدت اعجابا بذلك التحليل الدقيق الذي قدمه الطيب في كل ما يتعلق بمجريات واشكاليات أعداد وتنفيذ الاعمال الدرامية على مختلف الاصعدة .

تميز الطيب صالح بعشقه العميق لوطنه السودان واصالته العربية ، كما كان شديد التعلق بقريته كرمكول من اقليم مروى ، والذي يطلع على عمق ثقافته وحداثة تفكيره يتعجب كثيرا من المامه المكثف بكل ما يدور من تفاصيل يومية دقيقة حول اسلوب معيشة وعمل قبيلته الركابية ، علما بان احاديثه في هذا الشأن تبتعد تماما عن التعصب والشوفينية ؛وتتصل كثيرا بايمانه الذي لا يتزعزع والذي يدعو فيه الى وحدة وقوة الوطن وتماسك شعبه . وان عشقه للسودان هذا ...، هو الذي جعله يردد مقولته ويؤكدها في كل مناسبة ، وموجزها :ان السودان لم يأخذ حقه في الصدارة التي يستحقها عن جدارة وواقع تأريخي وجغرافي وشعبي .و لعل روايتيه (عرس الزين) و (دومة ود حامد) بخاصة تفصحان عن ذلك الاعتزاز الحقيقي المنصف.

كانت روايته ذائعة الصيت (موسم الهجرة الى الشمال) قد صدرت اول الامر في العددين الخامس والسادس من مجلة حوار اللبنانية عام ١٩٦٦ ، فلاقت اقبالا واسع النطاق من لدن النقاد والقراء على حد سواء ، وقد دفع هذا لاقبال (دار العودة) في بيروت الى نشرها في طبعة مستقلة ، أكتسحت اسواق الكتاب على امتداد الوطن العربي ، لتتلقفها بعدئذ دور الترجمة ؛ حيث أخذت طريقها الى العالم .

كان اعجابي بالرواية من حيث تفاصيل احداثها ينبع من كوني قد عرفت وعايشت كثيرا من الاماكن التي تتحدث عنها واختلطت كذلك بعدد كبير من الاشخاص الذين يقتربون واقعيا من ابطالها بحكم وجودي في بريطانيا كل تلك المدة الطويلة. لهذا وغيره فقد قرأت الرواية لاكثر من مرة ، ثم أبديت وجهة نظري بمقال نقدي مسهب نشرته والقيته اذاعيا ، ثم ضمنته بعدئذ ؛ الفصل الخاص بالادب السوداني من كتابي(حكاية الادب العربي المعاصر) ، وقد نال ذلك التقييم ثناءا من الكتاب والنقاد وليعاد نشره في بعض الصحف العراقية والعربية ؛ مما دفع بالطيب أن يتصل بي هاتفيا ويقدم لي شكره وامتنانه .

هنا لابد من اقتباس ما كتبته في حينه من فقرات ركزت على جانبين اساسيين يرتبطان بصيغة ونسيج وحبكة الرواية من جهة ؛ وبالجوهر الذي عالجته من خلال افكار منوعة متداخلة تماسكت فيما بينها لتصل الى الغاية الحقيقية التي هدفت اليها : (...وفي هذا المجال لابد لنا من تناول نموذج حي للأدب الروائي السوداني الجديد ، وهذا النموذج يتمثل بشكل واضح ومثير في رواية (موسم الهجرة من الشمال) للأديب السوداني البارز الطيب صالح ...

في كثير من الاحيان تنفلق في كبد السماء شعل ذات الوان زاهية ؛ تبدأ من منطلق الصوت ثم تنتشر حزما فخيوطا تتباعد بعد حين لتختفي في المجهول ، هكذا تترآءى لي رواية الطيب صالح الملحمة (موسم الهجرة الى الشمال) ، انها تثبت اقدامها في ارض منبتها اول الامر ثم تعود لتتحرك في مساحات واسعة من الامكنة والازمنة . تنتقل معانيها على جمل خفيفة الحركة ، مباشرة في المعنى ...من كلام بسيط يتسامر به ابناء الريف ، ... الى حديث مثقف الفكرة ؛ عميق العبارة ، موزون الكلمة يدور بين صفوة من أولئك الذين درسوا ثقافة العصور ، وآداب وفنون وفلسفات الامم ....

الحوار ذكي ينساب بلا تكلف او تأطير ، وانما بتخطيط ووعي ومتابعة دقيقة للبناء الدرامي والعضوي للرواية كلها ؛ واللغة تخدم الشخصية ولا تبتعد مطلقا عن فلك ومدار محورها ، اي لاتلتقط الشوارد بل تنبعث بأصالة من صميم الحدث مثل لحن هارموني التوزيع .

والرواية بعد هذا وذاك ، مزيج من الاعتراف الكامل المنسق لانسان بلغ تلك الذروة من الثقافة ، اعتراف يتعدى التدرج الزمني الرتيب ليصل الى مراحل متفرقة من الزمن ، تتقارب وتتباعد بحسب الانتقالات الذهنية ، مرورا بذكريات الامكنة ....

في هذه الرواية يبرز اهم لون من الوان البناء الدرامي : السرد القصصي ، انسياب الحكاية ، التداعي النفسي ، الحوار المتنقل ما بين الواقع ، حينا والذكريات احيانا ، ولكن الرواية لاتهتم في ذات الوقت بكلاسيكية التسلسل المعتاد في البناء الدرامي ، لافي الحبكة والسرد والايقاع والعرض والعقدة والحل النهائي ... الخ

لقد استطاعت رواية الطيب صالح ، ان تجسد امامنا و باحكام لاعفوي ، بطلها كنموذج حي للريفي وقاد الذهن ، مشتعل الذكاء . تتلقفه ثقافات العصور ، فيجيد هضمها ويحولها الى مادة تبهر الآخرين أو تحيلهم نارها رمادا او جثثا ممزقة ، ثم تصير منه اسطورة خارقة تمثل اكثر مما تعني ؛ وتكذب اكثر مما تصدق .. وذلك حينما تريد ان توقع السذج في المصيدة . لقد استطاعت الرواية كذلك ان تحرك مجاميع شخوصها بمهارة واختيار وتتبع طبيعي لايفتعل الحوادث ولا الحوار وانما يسوقها باطار صادق ومنطقي :

فمحجوب والعمدة وسعيد التاجر وود الريس وجين موريس وبكري وبروفيسور ما كسويل والحاج احمد وآن همند وبنت مجذوب وحسنة بنت محمود ، كل هؤلاء يتحركون في افلاكهم ... حول انفسهم وحول الآخرين كالشهب والنجوم والاقمار ، احاديثهم تنبع من شخصياتهم ؛ والكلام الذي يرددونه يتصل بوثوق تام بأشخاصهم وبالارض التي يعيشون عليها .

ان رواية موسم الهجرة الى الشمال ؛ سيمفونية موسيقية ؛ رائعة التركيب والاداء في الادب السوداني الحديث ؛ وملحمة شعرية عالية النفس ؛ انسانية اللمحات .).

كان آخر لقاء لي بالطيب صالح في فندق ميليا المنصور لمناسبة انعقاد مهرجان المربد الشعري عام ١٩٨٩، كان مرحا كعادته ومتواضعا في اسلوب تحاوره . لقد لفت نظري ونحن نجلس في كافيتريا الفندق ، نقده المباشر لكثير مما القي من قصائد في تلك الاماسي الشعرية التي كانت تنظم في قاعة مؤسسة المسرح والسينما المقابلة للفندق . وكان مما ركز عليه ولا انساه ابدا (تفاهة المواضيع وركاكة اللغة وتدني مستوى الخيال الشعري مع رتابة في الالقاء) ، وقد لاقى هذا الايجاز في التعبير تأييدا وتقديرا من لدن الجالسين الكثر . حينما تفرق الجمع الحاشد من حولنا ، و لم يبق من الجالسين على المائدة ، غير عبد الوهاب البياتي ،الفريد فرج ، سعد اردش ؛ الطيب صالح ، ووجدها البياتي فرصة ليقترح الابتعاد عن برتكول البرنامج الصاخب ونتوجه الى غرفة في الطابق الثاني تطل على دجلة مباشرة مخصصة للدعوات الصغيرة لنتناول ما لذ وطاب و لنواصل فيها احاديثنا .رحب الحاضرون بذلك .... وكانت سهرة ممتعة تشابكت فيها الاراء النقدية بالذكريات التي عطرتها احاديث الطيب عن ابعاد وتأثيرات عمله في اليونسكو وبخاصة في منطقة الخليج . ثم توزعت الحوارات الآنية على بساط واسع من الشعر و الفن التشكيلي والموسيقي اما الدراما الاذاعية والمسرحية فقد صال فيها فارسها القدير سعد أردش ، فامتدت تلك السهرة الثقافية الى ساعة متأخرة من الليل الغارق بأنوارمشعة متهادية آتية الينا من الضفة الاخرى حيث متنزهات ابي نؤاس . وانها لذكريات عطرة تنثنا بأحاديث من رحل من أؤلئك الافذاذ ، او من ينتظر من جيل ما زال يزخر العطاء.

عن (الحوار المتمدن)

لعنة«موسم الهجرة إلى الشمال»

فاضل السلطاني

في منتصف الستينات، نشرت مجلة «حوار» اللبنانية في أعدادها الأولى نصاً روائياً لشاب سوداني لم يسمع به أحد من قبل. وسرعان ما اشتهر النص في أرجاء الوطن العربي بسرعة قياسية من النادر أن تحصل مع نص منشور في مجلة متخصصة محدودة الانتشار. كان ذلك النص هو «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. نص أول مكتمل روائياً، سيترك تأثيره اللاحق ليس فقط على الرواية العربية، بل على الروائي نفسه منذ بدايته حتى رحيله أمس. سيُعرف الطيب صالح بهذا النص للأبد.

سيلتصق به الاسم بلا فكاك، مهما قدم من أعمال لاحقة ربما لا تقل أهمية عن «موسم الهجرة للشمال»، مثل «عُرس الزين» و«بندر شاه» بشكل خاص. ومن هنا، يصبح العمل الأول الناجح بشكل استثنائي بركة ولعنة في الوقت نفسه. بركة في البداية، ولعنة لاحقة. فكل مبدع يريد أن يتجاوز عمله السابق إلى ما هو أنجح منه، وأن يشكل نتاجه اللاحق علامة أخرى في مسيرته الإبداعية، وأن لا يقرن اسمه بعمل واحد، يكبر ويكبر حتى يطغى على اسم صانعه.

كتاب كبار في التاريخ الأدبي كانوا ضحايا أعمالهم الأولى، أو اقترنت أسماؤهم بعمل واحد معين. ما إن يذكر أحد تورغنيف، حتى تستحضرنا روايته «آباء وأبناء» بالذات، وليس أية رواية أخرى. وحشر دي. أتش. لورنس في «عشيق الليدي تشاترلي» إلى الأبد. وربما قاد النجاح المذهل لرواية «الحارس في حقل الشوفان» – حسب ترجمة الروائي الأردني الراحل غالب هلسا– مؤلفها الروائي الأميركي سالنجر إلى الصمت الأبدي، فقد انسحب إلى معتزله منذ نشر الرواية في الخمسينات، ولا يزال لحد الآن محتجباً عن العالم الخارجي، ولم ينشر أية رواية لاحقة، وربما كان خائفاً أن يفعل ذلك، ما عدا قصتين أقرب للنوفللا، ولم تثيرا اهتماماً يذكر.

وفعلت مواطنته هاربر لي صاحبة «قتل الطائر المحاكي»، روايتها الوحيدة، التي فازت بجائزة البوليتزر الأدبية الأميركية، الشيء نفسه، إذ اختفت تماماً عن المشهد الثقافي، ولم يعرف أحد أين مكانها، بعد أن اشتهرت روايتها بشكل فاجأها، وأصبحت من أشهر الأعمال الأدبية التي تحولت إلى أفلام سينمائية. وقام ببطولة الفيلم الذي حمل الاسم نفسه النجم الأميركي الشهير غريغوري بيك. ولا تزال محتجبة لحد الآن في مكان ما من بلدها، لكن روايتها بعد أكثر من خمسين سنة لا تزال تشهد إقبالا عالمياً في كل مكان.

عربياً، من الصعب أن نعثر على عمل أدبي راق مستوف شروطه الجمالية، قد أطلق صاحبه بهذا الشكل الكبير كما فعل «موسم الهجرة إلى الشمال» مع الطيب صالح. لقد راكم روائي كبير آخر مثل نجيب محفوظ شهرته عملاً بعد آخر في مسيرته الروائية الطويلة. ومن الصعب أن تعرفه بعمل واحد، أو يطغى على أعماله الأخرى عمل واحد حتى لو كان الثلاثية أو «أولاد حارتنا»، وكذلك الحال مع عبد الرحمن منيف، وإن يكن قد اشتهر بعمله الأول «شرقي المتوسط»، لكن لا أحد يقرنه به فقط، فهناك «مدن الملح» و«سباق المسافات الطويلة» و«الأشجار واغتيال مرزوق»، بشكل خاص.

هل جنت «موسم الهجرة إلى الشمال» على «بندر شاه» و«عُرس الزين» و«دومة ود حامد»؟ وهل كانت لعنة على الروائي نفسه؟

نعتقد أنها فعلت ذلك. وربما كرهها مبدعها مع الزمن في أعماق نفسه في الأقل

عن الشرق الاوسط

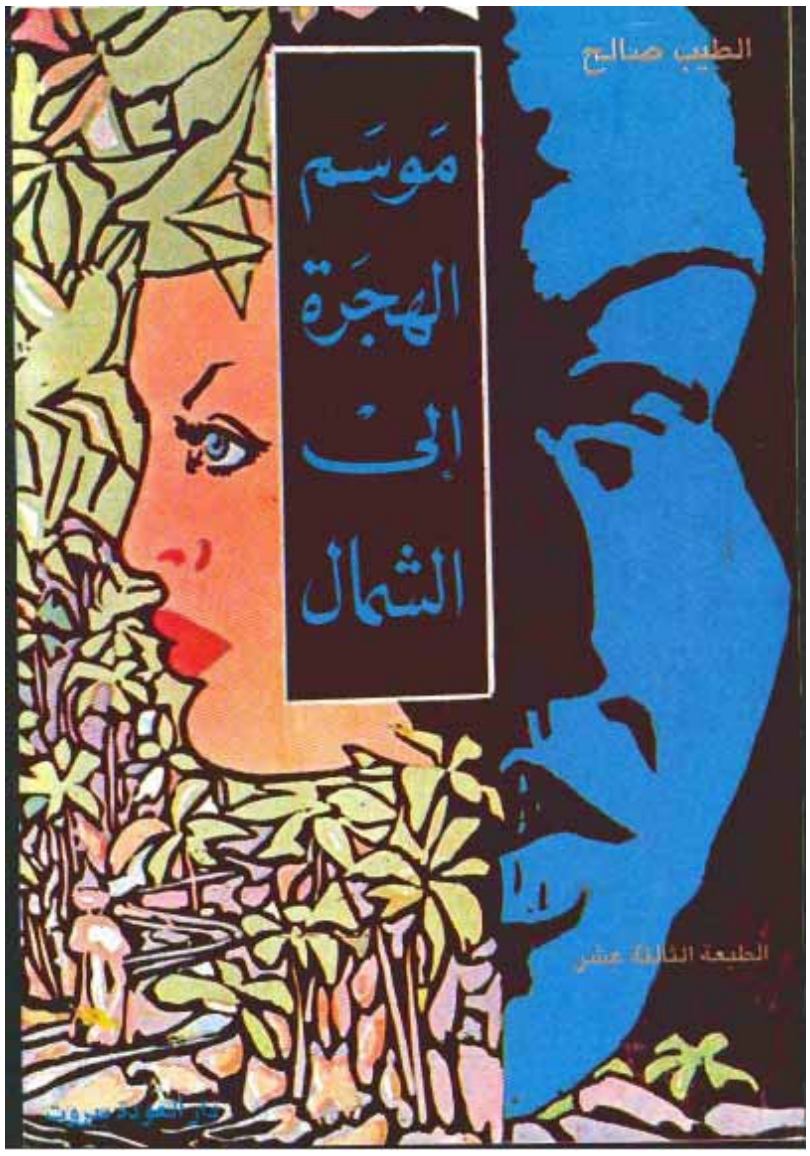

الطيّب صالح السودان الذي يحلم به جسّده

بابكر عيسى أحمد

عندما ذهبت إليه ذلك الصباح كنت كثير التخوف، فمجلس الطيب صالح لا يخلو من الندماء والأصدقاء والمحبين الذين لا ينقطع رنين هواتفهم، نسمات الصباح الباردة في ذلك اليوم من الشهر الثاني من العام الثاني من الألفية الثالثة، وأنا أدلف إلى – فندق الواحة – المكان الذي يحبه الطيب صالح طيب الله ثراه – أعطتني الأمل في أن أجلس لصاحب «موسم الهجرة إلى الشمال» وأن أستمع إليه وأحاوره في قضايا عديدة خاصة أنه كان كثير الترحال، حيث قضى سنواته الأخيرة مُتنقلاً بين الجامعات الأمريكية، يُحاضر ويُحاور ويتعلم من الآخرين ويقول إن قراءة التاريخ تستهويه تلك الأيام.

كان الحوار الأخير الذي أجريه مع الطيب صالح قبل رحيله عن دنيانا، والحديث معه يأتي عفويًا ومُتدفقًا وهو في أكثر الأحيان لا يريد أن يتحدث وعندما نجلس إليه يتدفق الحديث عذبًا وثريًا ونافعًا وشاملاً.. فهو مهموم بواقع الحال العربي ويرى أننا في أمسّ الحاجة لبذل مزيد من الجهد لمعرفة الآخرين وخاصة هناك في أمريكا حيث يرى أنها ليست شيئًا واحدًا وإنما هي عدة أشياء، ودعا عبر الحوار الذي استغرق زهاء الساعتين في غرفته المُطلة على الخليج العربي إلى إنشاء مراكز للدراسات الأمريكية في كل الجامعات العربية.

قال إنه ليس قلقًا على واقع الثقافة العربية، مُشيرًا إلي وجود مُبدعين، وحركة إبداع واسعة في العالم العربي وبلاد المهجر، وربط ازدهار الثقافة والإبداع بالأزمات التي تعيشها الأمة.

تحدث الطيب صالح بحب وأسى عن السودان الوطن الذي أحَبَّه وحلم به، وطن شاسع وكبير يتسع للجميع بلا بغضاء، ويحمل إمكانات غنية إذا أحسن استثمارها، وقال إن حنينه لوطنه لا ينقطع ودافع ارتباطه بتلك الأرض يقف شاهدًا في كل ما يكتب.

الطيب الكاتب والأديب السوداني الشامخ لم يكتب سوى أربع روايات هي: دومة ود حامد، وموسم الهجرة إلى الشمال، وعرس الزين، وبندر شاة بجزأيه: ضو البيت ومريود، ورغم هذه الندرة ظلت هذه الأعمال مسار جدل في حقل الرواية العربية الحديثة.

ولا تزال روايته موسم الهجرة إلى الشمال التي تُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة أو ما يزيد من أكثر أعماله شهرة ورواجًا واستقطابًا للنقاد والقراء على السواء.

تطاول بنا الحديث الذي نُشر على صفحتين بجريدة الراية عن المشهد الثقافي العربي وعن التحديات التي تُمثلها وسائل الإعلام الحديثة، ويرى أن هذه الوسائل يمكن أن تكون مُكملة للإنتاج الثقافي عمومًا.

وتحدث الطيب صالح بإسهاب عن دور اليونسكو في نشر الثقافة وتعميق الوعي، مُشيرًا إلى الفكرة الجيدة والمستمرة كل سنة في اختيار عاصمة عربية عاصمة للثقافة، وقال إن تجربة «كتاب في جريدة» تجربة ناجحة، أن يكون هناك في وقت معين عدد من الصحف في كل الوطن العربي وهي صحف مختارة ومنها الراية في قطر يخرج منها ملحق برواية أو بشعر أو بمسرحية. من الأشياء التي خرجت بها اليونسكو في عهد مُديرها السابق مايور أنه «ما دامت الحروب تنشأ في عقول البشر فلابد من إقامة حصون في عقول البشر».

عن طغيان الأفكار الفاجعة وملامح الوطن الذي يحلم به الطيب صالح قال إنه قد عبّر عن هذه الملامح في رواية «دومة ود حامد» وهي أول قصة له وأشعرته بأنه يمكن أن يكون كاتبًا، وأضاف: إنه لم يُغير رأيه فيها إلى اليوم، وخلاصتها: «أن الناس في البلد اختلفوا حول موقع للبابور ولا يعملوا طلمبة لسحب الماء من أجل مشروع زراعي، كما اختلفوا حول الضريح الذي يعود إلى أحد الأولياء وقالوا لازم يهدموا القبة.. في آخر الأمر قال الرجل الحكيم الذي يروي القصة «هل نسي هؤلاء الناس أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء، للدومة وللضريح ومحطة الباخرة وطلمبة لسحب الماء من أجل مشروع زراعي، كما اختلفوا حول الضريح الذي يعود إلى أحد الأولياء وقالوا: «لازم يهدموا القبة».. البلد واسعة ورغم ذلك يأتي من يقول لك «لابد من كده وليس كده».

لقد بلغ بهم العنت والغرور حقيقة، حيث حاولوا أن يفرضوا على الناس أزياء ونحن من الله خلقنا شايفين النسوان يلبسو الثوب وهو شيء جميل والناس عرفونا بيهو .. قالوا الا دا ما بيغطي الجسد كله.. مشغولين بالمرأة أنها عار وأنها إبليس الشيطان بينما المشكلة في أن الذي ينظر إلى المرأة هو الشيطان وليس المرأة.

يضيف الطيب صالح في ذلك الحوار الأخير، هؤلاء الناس خربوا أشياء كويسة جدًا، وقتلوا ناس بدون وجه حق ودمروا معاهد عريقة مثل جامعة الخرطوم وخربوا السكة حديد وخربوا مشروع الجزيرة.. كل الأشياء التي يرتكز عليها المجتمع السوداني والتي تعطيه الثقة بالنفس وبالمستقبل دمروها.. أنا أسميهم «الأذكياء الأغبياء» وقالوا إن السودانيين تعودوا على أشياء وعندما ندمرها يشعرون بالحيرة ونعطيهم أشياء وحاجات جديدة، حتى إن سوق الخضار لم يسلم من التكسير.. عشان كده أنا قلت «من أين أتى هؤلاء الناس بل من هم هؤلاء الناس؟».

اختتم الطيب صالح -طيب الله ثراه- حواره معي بقوله إن ما نحتاجه حقيقة هو قفزات في الخيال هناك أشياء كثيرة قام بها هؤلاء الناس ولم تنفع وكان عليهم الاعتراف بذلك على طريقة أهلنا القدامى، وهذا لا يحتاج إلى فلسفة ولا إلى علم ولا أي شيء «ياخي الدرب ده دا ما نفع خليهوا نشوف غيرو».. وما نحتاجه هو تغيير حقيقي في إدارة البلد والدنيا تغيرت كثيرًا وتقدمت ولم يعد الناس يقبلون ما يُملى عليهم وخصوصًا السودانيين.

ولا بد أيضا من خلق مناخ جديد يحرك الدنيا، وحتى هناك تباين في الخطاب مرة يقولون «العايزنا يجينا» ومرة ثانية يقولوا عايزين نستفيد من كل الخبرات والكفاءات.. رحم الله الطيب صالح فقد كان ثاقب النظر وصائب البصير.

غن جريدة الراية القطرية

الطيّب صالح.. رواية واحدة وخلاصات شائكة

محمود منير

لم ينل كاتبٌ عربي قراءات متعدّدة ومركبة لعمل روائي واحد مثلما حدث مع الطيّب صالح في "موسم الهجرة إلى الشمال"، الذي قدّم في أقلّ من مئتي صفحة أزمنة متداخلة، مفكّكاً جملة التباسات وأوهام لدى المستعمِر بالمستعمَر وبالعكس؛ حيث سعى الأول إلى تحديث الثاني بهدف الهيمنة عليه، ما ولّد تشوّهات لا تزال ماثلة إلى اليوم، ولم تستطع شعوب الجنوب أن تنجو منها في علاقتها مع الغرب.

ورغم الانتشار الواسع لهذه الرواية والتناول النقدي الهائل لها إلّا أن فخاخاً كثيرة ظلت تلاحق صاحبها، سواء في ما يتعلّق بمضمونها الذي اعتبره كتّاب عرب متطابقاً مع الرؤية الاستشراقية، ولم تنجح محاولات المؤلّف في تفنيدها، أو ما يتصل بذلك الإصرار على تخيّلها سيرة ذاتية عاشها صالح في لندن، ما اضطره إلى نفي ذلك كلما ظهر على الإعلام.

يضيء أستاذ الأدب الإنكليزي والناقد محمد شاهين أبعاداً مختلفة في شخصية الكاتب السوداني (١٩٢٩ – ٢٠٠٩)، في كتابه "الطيب صالح.. حوارات ومتابعات في الفكر والثقافة والإبداع"، الذي صدر حديثاً عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، من خلال انطباعاته التي كوّنها عبر لقاءاته الشخصية مع صاحب "عرس الزين"، وتوثيقه لمقابلاته الصحافية على مدار سنوات طويلة.

إحدى الالتقاطات البارزة التي تحتويها مقدّمة المؤلّف، تتمثّل في رأي عبد الرحمن منيف بـ"موسم الهجرة إلى الشمال" في كتابه "الكاتب والمنفى"، كونها "رواية تمجّد الاستعمار"، وهو تقييم يعتقد شاهين أنه لم يأت من فراغ لأنه يعود في أصله إلى الخطاب المعقّد الذي أنتجته شخصية مصطفى سعيد، وهو العصب الذي ترتكز عليها الرواية، لكنه يعتقد أن منيف ضلّ السبيل إلى قراءة منصفة عندما رأى البطل مجرّد راوٍ لتاريخ الاستعمار في سياق يتعاطف فيه الروائي نفسهُ مع الراوي المتخيّل داخل الرواية، كما جرت العادة في رواية العصر الفيكتوري.

شاهين الذي عقد صداقة حميمية مع كلا الكاتبيْن، لم يتمكّن من متابعة مبرّرات تقييم كهذا من منيف لأسباب لا يذكرها، لكنّ صالح ردّ على ذلك التقييم في حوار ضمّه الكتاب بالقول إن "روايته ترجمت إلى واحد وعشرين لغة وقُبلت عالمياً على أنها من أقوى الحجج الفنّية ضدّ الاستعمار". أمّا شاهين، فيلفت إلى الخطاب المغاير للرواية ويكمن في المفارقة التي يمثّلها مصطفى سعيد؛ بطل الرواية، في قوله "جئتكم غازياً" وليس "مجرّد وافد مثل عطيل الذي يضيع في متاهات الغربة الغريبة. وكأن صدى عبارته (أي سعيد) توحي بالقول: أنا لستُ الوافد الضحية المسالم المستسلم. مصدر قوّتي أصلاً مردّه ردّة فعل قوّتكم؛ جرثومة فتّاكة لا تفرّق بين غازٍ ومغزوّ، بين متسعمِر ومستعمَر».

مسألة ثانية يستذكرها شاهين في تقديمه وهي القراءة الجائرة التي استُقبلت بها الرواية فور ظهورها في مجلة "حوار" لأوّل مرة عام ١٩٦٦، إذ مُنعت من النشر في مصر والكويت بسبب "الاعتماد على قراءة لا تذهب أبعد من البُعد الخارجي للحدث"، وربما مثل هذه القراءة جعلت منيف يذهب في تقييمه للرواية إلى ما ذهب إليه، بحسب المؤلّف.

تفسير الحدث/ الحبكة الذي قامت عليه الرواية ظلّ مدار بحث لم ينته حتى اليوم، ما تثبته إجابات صالح عن أسئلة متكرّرة طرحها عليه محاوروه في هذا السياق، وتأكيده المستمرّ على وجود وهم أوروبي ووهم عربي حيال الصراع بين الشرق والغرب، حيث كلمة "شرق" لا تعني بالنسبة إليه أي شيء، بل إنه يعتبر أنه من ضمن الأوهام التي أضافها العرب على هذه الأوهام قبولهم بأنهم "شرق"، وبذلك يكون الصراع في الرواية بين أوهام.

ويذهب أبعد من ذلك بالقول: "كنت من أوائل الكتّاب العرب الذين قدّموا تحدّياً لهذا الوهم، لأنه لم يكن ثمة أدنى شك في ذهني بأن هذه العلاقة علاقة مزيّفة، ولا يمكن أن ينتج عنها أي فائدة. وقد جاء أساتذة مثل إدوارد سعيد، الذي كتب كتابه 'الاستشراق' وتعرّض لهذه القضية باستفاضة، وكيف أن الغرب 'صاغنا'، قائلاً بالفكرة من جديد، في صورة ليست حقيقية، بل صورة أرادها ليقيم علاقته مع هذا الوهم».

لم يكن ذلك هو الهاجس الوحيد لدى صالح عند كتابته هذه الرواية التي صدرت بعد إقامته في لندن لستّة عشر عاماً، إذ يبيّن في أكثر من لقاء أنه سعى أيضاً إلى إضاءة مناطق مظلمة في الوعي العربي حين كتب عن بلده السودان وتحديداً في شماله حيث تسكن قبائل

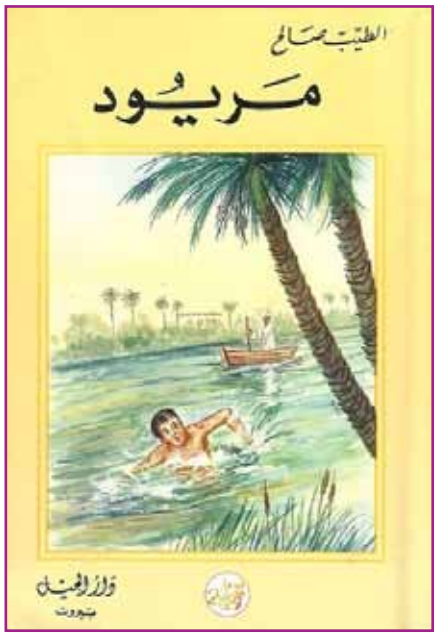

عربية يشكّل نهر النيل أساس وجودها، لافتاً إلى أن تصويره نمط حياتهم يصب في النهج الذي سار عليه كتّاب عرب مثل البشير خريف في رواياته حول الجنوب التونسي، وعبد الكريم غلاب في كتابته عن المغرب، وطاهر وطار حول الجزائر، وغالب هلسا في روايته عن الأردن ومصر والعراق.

إلى جانب رغبته في الحديث عن الصراع في الحياة الذي يقوم بين إيروس (الحب) والموت، إذ كان واقعاً في تلك الفترة تحت تأثير فرويد، بحسب إحدى مقابلاته، حيث الحب هو التعبير التام عن الحرّية، وما عدا ذلك - مثل أن يصبح المرء مليونيراً أو رئيساً للجمهورية، أو أي شيء آخر - فهذا كله يدخل في باب الموت.

لكنّ هذه الطروحات وغيرها ممّا تناوله في هذه الرواية ظلّ أسير الجدل حول مضمون رسائله التي أوصلها للقارئ، كما يظهر في ردود الفعل التي دارت حولها، وكذلك في إصرار القرّاء والنقّاد على اعتبار بطل الرواية تمثيلاً لحياة الطيب صالح، ما استدعى تفنيده لذلك بأشكال مختلفة، ومنها قوله إن حياته لم تحمل إثارة تُذكر، خلافاً لمصطفى سعيد، وإن التخييل في خلق الشخصية كان طاغياً على كلّ ما هو واقع، وإن كانت بعض صفاته تشبه صالح أو مئات العرب من جنسيات مختلفة أكدوا أنهم يشبهونه، كما كانوا يخبرونه في لقاءاتهم معه.

ويزيد في توضيح المسألة بأن "الكاتب يجب أن يقطع الحبل السريّ بالتجربة ويتركه يختلط بأشياء كثيرة، ومصطفى سعيد به صلة بي، ما لمحيميد في 'ضو البيت' من صلة بي"، في إشارة إلى روايته التي صدرت عام ١٩٨٩؛ بعد أكثر من ثلاثة عقود من صدور "موسم الهجرة إلى الشمال". وينطبق الأمر ذاته على جين مورس، حبيبة مصطفى سعيد، التي كانت مجرّد اسم لفتاة التقاها صالح مرّة واحدة أثناء حضوره معرضاً فنياً ولم يقابلها بعد ذلك، لكن أطلق خياله لتصوّرها إحدى شخصيات روايته.

رواية واحدة طغت على بقية أعمال الطيب صالح التي لم ترقَ إلى مستواها، ولم يستطع الإفلات من هيمنتها على معظم محاوريه الذين كان يضطرّ كثيراً لتصحيح معلومة أنها ليست روايته الأولى، وأنه كتب رواية "عرس الزين" قبلها بسنوات عدّة، وهو يحافظ على موضوعيته إزاء الطروحات المبالغ فيها حول "موسم الهجرة إلى الشمال" بأنها رواية مستقبلية أو عمل فكري أو تاريخي، دون إغفال "أسبقيته" في التصدّي لأطروحات مركّبة لا تزال تواصل تأثيرها في الراهن العربي. بل ربما كانت الرواية العمل الأبرز الذي نُشر قبل هزيمة حزيران/ يونيو ١٩٦٧؛ الهزيمة التي فجّرت تساؤلات حرجة حول الذات العربية في نظرتها إلى "انكسارها" كجماعة مستلبة وغير فاعلة في حاضرها، وفي طبيعة علاقتها المعقّدة مع الآخر.

ببساطة، تعامل الطيّب صالح مع تلقّي روايته بواقعية شديدة، باعتبارها عملاً نجح في مقاربة أفكار لا تزال راهنة دون التنازل عن المستوى الفنّي، قائلاً إنها لا تحتمل أكثر من ذلك. وينسحب الأمر على مشروعه الروائي كلّه، حيث يقول بصراحة: "لم أرد أن أكون كاتباً. بل بالعكس، أنا حاولت أن أكون شيئاً آخر وأصبحت كاتباً بطريق الصدفة، ولم أرد أن أترك السودان... أيضاً خرجت من السودان بطريق الصدفة، ويبدو أن الصدفة تلعب دوراً في حياتي».

عن العربي الجديد

الطيّب صالح «زوربا السوداني»

محمد شعير

بين ولادته منذ ٨٠ عاماً في قرية كرمكول (إقليم مروى، شمالي السودان) حتى رحيله في لندن، كتبَ الروائي السوداني الطيب صالح واحدة من أعظم الروايات العربيّة على الإطلاق... إنها سيرة حياة لم تتح لكثيرين: حبّ وترحال، معارك صاخبة، وصمت، سخرية من الواقع والأشياء، بل أحياناً من الذات، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس مثل شاعره المفضل أبو الطيب المتنبي!

لم يحلم الطيب صالح بأن يكون أديباً، بل خطّط في طفولته لأن يعمل في الزراعة، لكنّه اكتشف أنّ ذلك «مجرد حلم رومانسي»، فهو لا يصلح لشيء سوى الكتابة. روائيٍ من نوع خاص، ظلم الأدب العربي بكسله الشديد، مكتفياً بمجموعة قصصية يتيمة «دومة ود حامد»، وثلاث روايات: «عرس الزين»، و«بندر شاه» في جزءين: «ضو البيت» و«مريود» وطبعاً «موسم الهجرة إلى الشمال»، روايته الأكثر تأثيراً في الأدب العربي، والأشهر – في العالم كلّه – بين نتاجات الأدب العربي المعاصر. وقد جعله هذا الكسل مثاراً للوم المقربين منه، حتّى إنّهم كانوا ينادونه في ما بينهم بـ«زوربا السوداني» لأنّه اختار أن يعيش الحياة، لا أن يكتبها. منذ صدورها عن «دار العودة» في بيروت عام ١٩٦٦، غطت شهرتها على أعماله الأخرى التي تلتها. حتى إنّه كرهها في سنواته الأخيرة، وكره مجرد الحديث عنها. تماماً مثلما غطّت شهرته هو على كتّاب السودان الآخرين، فلا يذكر هذا البلد إلا مقروناً بالطيب صالح.

لم تغب كرمكول عن ذهن الطيب. كانت تطارده أينما ذهب، يتذكّرها في صيف لندن عندما يتساقط المطر. في شبابه، انتقل لدراسة العلوم في جامعة الخرطوم، وبعدها سافر إلى إنكلترا ليواصل دراسته، ولكن في مجال آخر هو الشؤون الدولية.

بعد تخرّجه، تنقّل في مهن مختلفة: فترة قصيرة مدرّساً، ثم في القسم العربي لـ«هيئة الإذاعة البريطانية»، حيث ترقّى حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما. بعد استقالته من «بي بي سي»، عاد إلى السودان وعمل فترةً في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلى قطر وعمل في وزارة إعلامها وكيلاً ومشرفاً على أجهزتها. عمل لاحقاً مديراً إقليمياً في منظمة الأونيسكو في باريس وممثّلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي. حالة الترحال والتنقّل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعةً بأحوال الحياة والعالم، وأهمّ من ذلك أحوال أمته وقضاياها... وهو ما وظّفه في كتاباته وأعماله الروائية خصوصاً «موسم الهجرة إلى الشمال» التي كتبها في أوروبا، بين ١٩٦٢ و١٩٦٦، وذلك بعد محاولات عدة لكتابة الشعر.

مصطفى سعيد بطل الرواية أصبح من أشهر شخصيات الأدب العربي، شرقي نابغ يبحث عن ذاته في الغرب، يرفع شعار «جئتكم غازياً» وينتقم من غزاته بالجنس، حتى يقتل عشيقته جين موريس ويُحكم عليه بالسجن. لدى صدورها، ألقت الرواية حجراً في بركة راكدة، وعدّها ناقد مثل إدوارد سعيد أساساً لكتابه الهامّ في ما بعد «الاستشراق».

رأى بعضهم أنّ ثمة ملامح بين شخصية مصطفى سعيد والطيّب نفسه، لكنّه كان حريصاً طول الوقت على أن ينفي العلاقة. صحيح، كما يؤكد، «يمكن بعض الشخصيات أن يكون لها جذور في الواقع. وأنا كما أقول دائماً، أترك الواقع يتحول إلى حلم... أنسى حتى لو كان هناك شيء حقيقي قد حدث، أنسى مصدره فيتحوّل في الخيال إلى حلم ويخرج هكذا». وعندما نسأله: هل عشقت يوماً إنكليزية؟ يجيب: «عشقتُ... لكنّها كانت اسكتلندية، تزوّجتها ولم أقتلها! ».

لكن منذ سنوات في إحدى ندوات الجامعة الأردنية، كشف الطيب سرّه الدفين: «جين موريس شخصية حقيقية لكنها ليست هي نفسها في الرواية. تعرفت عليها في الشهر الأول من وصولي إلى لندن عام ١٩٥٣ في المتحف الوطني. جذابة حقا. كان في المتحف آنذاك معرض عن الفن الانطباعي... تحدثنا وسألتني من أين أنا... وكنت في ذلك الحين فتى يافعاً، لا بد من أن تعترفوا بذلك... خرجنا من المعرض وذهبنا إلى مقهى وأمضينا بعض الوقت في الحديث عن أمور عامة، وبعد ذلك لم أرها قط، واسم الفتاة جين موريس، وقد أحببت ذلك الاسم. ومن ذلك اللقاء علق اسمها في ذاكرتي وأدخلته الرواية: الاسم وبعض الأمور الأخرى التي يعلم بها الله».

اختزال النقّاد له في هذه الرواية أصابه بالضيق الشديد. عندما سألناه منذ سنوات في القاهرة عن مسألة توقفه عن الأدب، احتدّ قليلاً: «لستُ حقلاً بوراً كما يتصوّرني النقاد». وبالفعل، إذ لم يتوقف صاحب «مريود» مطلقاً عن الكتابة. حاول في مقالاته الصحافية أن يجرّب أنماطاً جديدة من تجارب مختلفة: كتب في الرحلات وعن أشخاص التقاهم واقترب منهم مثل صديقه «المنسي» الذي عمل معه في إذاعة لندن. كذلك لم يلتفت كثيرون أيضاً إلى ما ترجمه الطيب من أعمال مثل كتاب «الاستعمار في الكونغو» التي اشتراها ملك بلجيكا، وأصبحت ملكه الخاص ولم تكن مستعمرة بالمعنى المتعارف عليه. كذلك ترجم أيضاً كتاب الفيلسوفة الشهيرة حنّة إرندت «أيخمان في القدس» وهي أعمال ربما منعه كسله، ورغبته في التجويد، من أن ينشرها في كتب.

ويبقى العنصر الثابت في كتابة الطيب صالح هو المكان، القرية التي ولد فيها بتحولاتها. كان يعتبر الكاتب مثل عالم الآثار: «نعيش على سطح آلاف السنين من التجارب الإنسانية». لذا مهمته أن يحفر في الأرض بحثاً عن أشياء مختلفة: قطعة في إناء، وعاء، وأشياء أخرى كثيرة... الكاتب مهمته أن يضع هذه الأشياء بعضها في جوار البعض الآخر، كي يرى ماذا سينتج. وفي «بندرشاه» التي أصدر منها جزءين وكان يتمنّى لو أنها وصلت إلى خمسة أجزاء، حاول أن يتقصى العلاقة بين المدينة (البندر) والحكم (الشاه)، لأنّ مشكلة المجتمعات العربية من وجهة نظرة تكمن في كيفية الحكّم في المدينة: كيف تحكم المدينة وعلاقة الحاكم بالمحكومين.

ظلت رواياته ممنوعة في الكثير من الدول العربية، ليس فقط لجرأتها، بل أيضاً لما تناولته من قضايا عن علاقات الحكم الملتبسة. وقد ظل ممنوعاً من دخول السودان لفترات طويلة، حتى صرّح منذ وقت قريب قائلاً: «كرهت السلطة في السودان منذ هذا العهد الأخير. كرهتها من حيث المبدأ لأنّني لا أحبّ النظم الدكتاتورية العسكرية، فكتبت عنها في البدايات. والحقيقة أنّني كتبت عنها وأنا بعيد عن السودان، أيّ إنني لم أقم بدور بطولي. وهم بادلوني الكراهية وهذا شيء طبيعي». أمس عندما رحل الطيب صالح، تذكّرت السلطة أنّها لديها كاتباً كبيراً مثله، وطلبت أن يدفن في السودان، وهو ما رفضته أسرته. ولم يُتّفَق على شيء حتى لحظة كتابة هذه السطور: هل يعود الطيب إلى بلده ليُدفَن على ضفاف النيل، أم يبقى في«الشمال»، في المكان الذي عشقه ووهبه النذر الأكبر من حياته؟

عن الاخبار اللبنانية

عطيل العربي المتحرر من أسر اللون

علي بدر

أعاد الطيب صالح الاعتبار لـ«عطيل»، لا في النصية الشكسبيرية كدراما كلاسيكية متوترة، إنما كعلاقة مضطربة ومهددة، كتراجيديا تبرز فجأة من النصية الاستعمارية، ومن وجودها المتجدد والحيوي في التاريخ السياسي والاجتماعي للصراع بين أفريقيا وأوروبا، وهكذا يدفع الطيب صالح رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» لتكون الخطاب النقيض للمفهوم الشكسبيري حول قضايا العرق والدم، ولتتحول هذه الميتا–دراما إلى نوع من العلاقة الغامضة بين أسود من المستعمرة وشقراء من المتربول، وبفضل سلسلة من الاضطرابات السيا–سايكولوجية، تصل الرواية إلى الذروة، القتل، انتفاء النص الشكسبيري، نقص تراتب الأنساق العرقية، قانون العيب، الخيانة، ومن ثم نهاية النص الشكسبيري الذي قام أصلاً في مأسسة مشكلة هذه الثنائية الثقافية والحضارية، بل لتتلاشى هذه الدراما الكونية تحت هاجس العلاقة النقضية بين عطيل وديزدمونة، وتتحول من دراما متوترة إلى محاولة ثقافية لاستدعاء التراث الغربي ومن ثم الاحتياز عليه وتمثيله، لقد أخرج الطيب صالح «عطيل» الأسود المحبوس في لونه الماحق، إلى التجربة المعيشة.

ولا بد من إعادة الاعتبار إلى جوزيف كونراد، وإلى أحداث روايته الطاحنة «قلب الظلام»، لا في تصوير هذا التضاد الظاهر في علاقات القوة بين المستعمر والمستعمر، إنما في تصوير التهديد الناجم عن تمثيل الآخر، بصفته نقيضاً للذات المركزية الغربية ومركزية اللوغوس الغربي، بل عمد الطيب صالح إلى تجاوز علاقات التمثيل من مجرد انعكاس للممارسات الكولونيالية إلى اشتباك جسدي، بل حرر العلاقة التاريخية بين النقيضين: غرب/شرق، أفريقيا/أوروبا، شمال/جنوب، إلى علاقة قائمة في الهاجس الإنساني، وهذا الأمر أكثر تعقيداً من فكرة كونراد بكثير، على رغم ألمعية رواية كونراد واستثنائيتها في التاريخ الإنساني، لأن صالح ذهب مباشرة نحو العلاقات الجنسية المتوترة، وقد حول بذلك العلاقة التاريخية من علاقة سياسية ظاهرة إلى فحولة قاهرة وأنوثة مقهورة.

ويجب الوقوف أمام «موسم الهجرة إلى الشمال» وموقعها في الدراسات ما بعد الكولونيالية، والدراسات الثقافية، وأدب المنفى والهجرة، وقراءات بوليطيقيا الجسد في الدراسات الحديثة، وبعث أسطورة كاليبان بصفته الآخر الذي يجب السيطرة عليه باسم المدنية، والذي يطرح في شكل ثابت ثنائية الفوضى والنظام، والخطاب الناتج من تأكيد علاقة تفوق اللون مع احتمالات العصيان وتبديد السلطة. وليظهر على نحو محفوف بالمخاطر أثر الرق الممسوح والمختلط الخاص بهذا التاريخ الكرنفالي، والفصل الزائف والمتوحش الذي يؤكده فرانز فانون بين القصبة المظلمة والحقيرة وبين المدينة الأوروبية المضاءة، والإحساس بالنشاز الكياني والأنطولوجي والقيمي للبشر.

أخيراً هذا هو الطيب صالح، السوداني، العربي، الكوني، سافر كثيراً، وعمل طويلاً، وكتب الروايات، والقصص، وأدب الرحلات، وعمل مذيعاً، ومستشاراً ثقافياً، ثم مات بعيداً من بلاده، بعد أن منعت روايته الشهيرة «موسم الهجرة إلى الشمال» في بلاده بضعة أعوام.

الطيّب صالح وموسم الهجرة إلى الشمال

د.عبدالله إبراهيم

تعرض رواية \"موسم الهجرة إلى الشمال\" للراحل \"الطيب صالح\" التوتّر العميق بين الشرق والغرب. ومن أجل بلورة هذه الفكرة لجأت الرواية إلى تقنيات سردية كثيرة لتجسيد هذا الموضوع الذي ظل أحد شواغل الرواية العربية منذ نشأتها الأولى، لكن الطيب صالح أضفى على القضية طابعا مأساويا حينما غلّف العلاقة بين الرموز الحضارية بالعنف، والموت، فتخطّت الشخصيات مستواها النصي المباشر لتّتصل بمجالات الصراع المتوتّر بين الشرق والغرب.

جسّد مصطفى سعيد، بطل الرواية، طبيعة الاختلاف بين عالمين اصطرعا بكل الوسائل لقرون طويلة. وكان المؤلف قد أشار إلى أن هذه الرواية تطرح مشكلة \"الهوية\" أي\"مشكلة علاقتنا بالعالم الخارجي، خصوصاً أوربا، ومشكلة نظرتنا إلى أنفسنا\". والمتن السردي للرواية يعني بهذه القضية، من جانبها الأول، وهو علاقة \"الأنا\" بـ\"الآخر\" وعلاقة \"الأنا \"بنفسها وهو جانبها الثاني، فحكاية مصطفى سعيد تتصل بالجانب الأول، فيما حكاية الراوي تتصل بالجانب الثاني، إنهما وجها مشكلة \"الهوية\" التي جرى تمثيلها سرديا في هذه الرواية بأبعادها الموضوعية المتصلة بالآخر، وبأبعادها الذاتية المتصلة بـ\"الأنا\". طرحت قضية الصراع في\"موسم الهجرة إلى الشمال\"على خلفية تاريخية عاصرت ظهور الرواية، وأثّرت فيها كموجّه خارجي، مثل حركات التحرّر، والتمرّد، والعنف المتبادل التي اندلعت في منتصف القرن العشرين، وخلال العقود اللاحقة ضد السيطرة الاستعمارية، وبخاصة في إفريقيا التي تشكل الفضاء العام الذي تتفاعل فيه الأحداث المتخيلة للرواية، وكان العنف بأشكاله المتعدّدة هو الوسيلة المهيمنة في الصراع بين المستعمر والمستعَمر، إنه عنف زرعه الأول في نفس الثاني، أو أسهم في إيقاد شعلته؛ لأنه رأى أنه الوسيلة الوحيدة التي بها يتخلّص من المستعمر. قال \"سارتر\" في تقديمه لكتاب \"فرانز فانون\"معذّبو الأرض\"- وهو شأن رواية الطيب صالح كُتب على خلفيّة نشاط حركات التحرّر الوطنية، ولا يفصل بين صدورهما إلا سنوات قليلة- \"إن علائم العنف لا يستطيع ليُن أن يمحوها، فالعنف وحده هو الذي يستطيع أن يهدمها؛ ذلك أن المستعمَر يُشفى من عصاب الاستعمار، بطرد المستعمر من أرضه بالسلاح، فهو حين يتفجّر غضبه يستردّ شفافيته المفقودة، بذلك يعرف نفسه بمقدار ما يكون قادراً على صنعها\"ذلك أن\"فانون\"نفسه قد افتتح كتابه بالقول\"إن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائما\". استثمر مصطفى سعيد مفهوم العنف، واستخدمه كفعل فردي، وكممارسة جنسية ثأرية تتنكر وراء إشباع رغبات غامضة لها دلالات متموّجة، لكنه عنف يريد به الشفاء من جرح. وكل ألفاظ العنف، وما يتصل به من دلالات تتكرر كثيرا في حديث مصطفى سعيد، وتزداد أهميتها في وصف علاقته بالنساء الأوربيات، وما أن يبلغ ذروة ثأره بقتل جين مورس، إلا ويخلو الخطاب من كل ماله علاقة بالعنف.في الغرب شعر مصطفى سعيد بأنه الغازي الذي انتشي بنصره لأنه ردّ العنف بالعنف، فبلغ الأمر حدّا تماهى فيه مع شخصية كتشنر، لكنّه سرعان ما استجمع سلسلة الممارسات العنيفة التي ألحقها \"الأوربيون\" ببلاده وحضارته.

استعاد مصطفى سعيد شفافيته بممارسة العنف؛ لأنه كافأ العنف بالعنف، فرحلته الفردية إلى\"الشمال\"كانت مدفوعة بهاجس الثأر العنيف، وهي ردّة فعل للتورط الغربي الجماعي في السيطرة على بلاده، وخفض قيمته الإنسانية، وإقصاء فعله الحضاري. لاحظ \"إدوارد سعيد\" أن مصطفى سعيد يقوم بدور معاكس لما قام به \"كورتز\" في رواية \"قلب الظلام\" لجوزيف كونراد، فكوارتز\" يرحل إلى\"الأقاليم السوداء\"فيما يرحل مصطفى سعيد إلى\"الأقاليم البيضاء\". وهذا ليس الفارق الوحيد بينهما، إنما الفارق المهم هو أن الأول شأنه شأن\"روبنسن كروزو\" في رواية \"ديفو\" يرمز إلى الرجل الأبيض الذي يؤمن بنسق من القيم الفكرية والدينية والأخلاقية التي توظف لإنقاذ \"الآخر\"من خموله وتخلّفه، وتحت الوهم الخادع بتغيير وضعية \"الآخر\" يتم تطبيق برنامج السيطرة الاستعمارية بوجوهه الثقافية السياسية والاقتصادية، أما الثاني فلا يسكنه هاجس التفوق، إنما هو يدفع بالعنف عنفا كان اختزله إلى كائن سلبي، فرحل طالبا بالثأر في عقر دار الغازي الأصلي، كأن يريد أن يردّ على أولئك الذين أرادوا مسخه حينما علموه كيف يذعن لهم ليقول \"نعم\" بلغتهم. أصبح الغرب بالنسبة لمصطفى سعيد تجربة ذهنية راح يستعيدها منفردا لوحده، حينما يعود متعبا من مزرعته في السودان، فجعل ما تبقى من حياته مكرّسا للهروب من \"حالة\" الغرب، والاتصال سرا بذكراه، وعلى نحو مماثل بالضبط لما كان يقوم به في غرفته \"اللندنية\" ولكن بمعاني مختلفة تماماً، وهنا يدخل المكان ليعمّق المنحى الرمزي للأحداث، ولشخصية مصطفى سعيد على حد سواء؛ فغرفته اللندنية فضاء شرقي في قلب الحاضرة الغربية، وغرفته السودانية فضاء غربي في عمق الشرق، والغرفتان وظّفتا في النص لغايتين مختلفتين.

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

الطيّب صالح رواية المستقبل

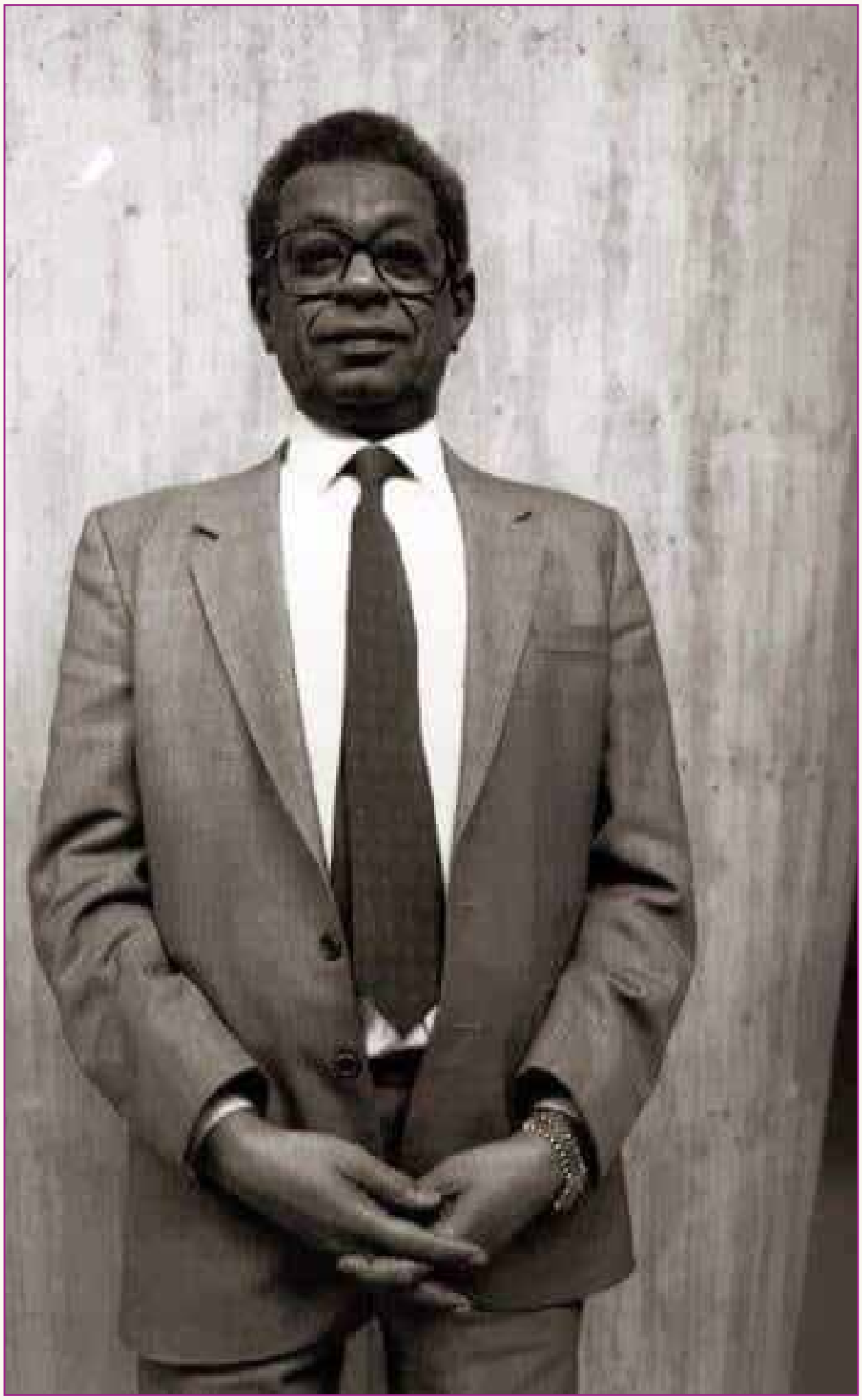

عباس بيضون

كانت «موسم الهجرة الى الشمال» حدثاً مدوياً في الرواية العربية وقلما كان لرواية سواها هذا الحظ. لقيت «عرس الزين» حفاوة حقيقية لكن الناس ظلت تتحدث عن «موسم الهجرة الى الشمال». أما «بندر شاه» ومريود فكانا روايتين لكاتب «موسم الهجرة الى الشمال». هل كان الطيب الصالح كاتب الرواية الواحدة. أم ان الجمهور الذي اقتحمته «موسم الهجرة». وفجرت فيه تطلبا جديدا كان مهيأ لذلك، ولم يكن مهيأ لأكثر منه. لقد سمح لرواية في عنف موسم الهجرة وصداميتها ان تحتل مخيلته لكنه بالتأكيد وجد فيها جوابا راديكاليا. كانت دراماتيكية الرواية تناسب وعيا تاريخيا صراعيا وديناميكيا اوعزت به الموجة القومية. اما الروايات التي تلت موسم الهجرة فقد سبقت تقريباً وعي القارئ. كانت احتفالية وملحمية عرس الزين وسحرية أو فانتازية «بندر شاه ومريود» قفزة اكثر مما يحتمل. كانتا (الروايتان اللتان كتبتا كجزء من ثلاثية لم تظهر فيها ثالثة) فتحا روائيا بحق ولحظة في الرواية لم تتأخر عن العالم بل وجدت، بدون جهد او تقصد، فيه، لكن القارئ لم يكن بهذا التطلب. لم يكن مستعدا لرواية بلا موضوع لكنها كما يدل اسمها (عرس الزين)، نوع من عيد أدبي، من سرد ملحمي لا يتغذى من أي شيء سوى من شاعريته الخاصة، ومن قدرته على انشاء الواقع وعلاقاته في تشكيل فسيفسائي. لم يكن القارئ مستعدا بعد أيضا لاستعارات كبيرة كالتي في «مريود» و«بندر شاه»، اذا كانت لحظة الصراع العنيف قد فتنته في «موسم الهجرة» فقد فاته ان يلحظ الانذار القدري الذي فيها والاستحالة التي تنتهي بالاختفاء والغياب وربما العودة الى مصدر أول خيالي. لقد كان هذا فوق تطلبه. الأرجح ان المديح الرائع في عرس الزين شاقه لكنه لم يلحظ ما فيه من هشاشة ومن مصالحة وهمية. لم يلحظ ان كل ذلك يحمل انذارا بنهاية عالم ما لبث ان انهار في استعارة رائعة في بندرشاه ومريود. استعارة يخرج فيه الاولاد على الآباء، قبل ان يُسحقوا بين الأجداد والأحفاد. لقد كان كل ذلك، من «موسم الهجرة» الى «مريود» نوعا من مرثية توراتية، مرثية عالم يتحول فيه العنف الى سند روحي قبل ان يغرق في الظلمات وتخرج اشباحه من القبور معلنة انهيار الواقع واغتيال الحاضر.

أصدر «الطيب صالح» بعد احدوثته مريود نصوصا من بينها واحد شبه بيوغرافي «المنسي» لكن الناس والقراء بقوا في خبر نصوصه الاولى، اذ ان هذه النصوص لم تستنفد بعد، لم يصدر الطيب سوى أربع روايات تقريبا لكن واحدة منها فحسب وربما اثنتين في الأكثر عرفتا قراءة واسعة. كانت القراءة تقل بمقدار تقدم فن الطيب الروائي. كانت موسم الهجرة رواية قضية، وربما هنا سر انتشارها. لقد وضعت علاقة الشرق والغرب في سياق عنيف وأمام استحالة، لكنها اوحت بأن امتلاك الغرب مثله مثل العودة الى الأصل مسدودان. مع ذلك يمكن الآن النظر إلى موسم الهجرة كرواية ايديولوجية. ان لغتها هي لغة حكم ورسالة متقصدة، لكنها ككتاب ادوار سعيد اللاحق عن الاستشراق حملت نقدا ايديولوجيا. كان مصطفى سعيد مستشرقا ضديا ولم يستطع ان ينزع عنه هذه اللعنة، لكن الطيب صالح في «عرس الزين» كتب بلغة بلا حكم. لغة ذات شاعرية وإيقاع وتشكيل فحسب. كتب ملحمة ناعمة وعيدا لغويا ونصا من شغاف الواقع وماويته، كتب منمنمة كبيرة ولم يعد الموضوع ولا القضية خارج النص او خارج نسيجه. أما في «بندر شاه» و«مريود» وقبل ان تصل رواية اميركا اللاتينية فقد أسس فانتازيا عربية.

رواية بعد رواية كتب الطيب صالح الرواية المضادة اذا كانت رواية نجيب محفوظ هي عمود الرواية العربية، رواية اللغة والشعر والسحر. لقد كان هذا فوق طاقة القارئ العربي. هكذا بقي انتاج الطيب صالح على قلته غير مقروء كفاية. اليوم نجد هذا الأدب يملك من الاصالة ما يتيح له ان يبقى في الزمن، كتب الطيب صالح رواية وأثر بعد ذلك ان يكتب احدوثة، كتب الدراما وبعد ذلك فضل ان يكتب الشعر. كان مقروءا جدا وغير مقروء، مشهورا ومغمورا في آن معا، روائيا كبيرا عاطلا عن الكتابة. لقد كان مقلا ومع ذلك لم يستنفد، وبهذا المتاع القليل نحلم ان المستقبل سينصفه أكثر من الحاضر فكاتب في قامته لا يفوته المستقبل.

عن جريدة السفير ٢٠١٠